المعركة الأدبية بين أحمد أمين والدكتورزكي مبارك: دراسة تحليلية

د. محمد يوسف مير، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الإسلامية للعلوم والتكنولوجيا، كشمير

الملخص:

إن هذه الدراسة تدور على معركة أدبية فريدة دارت بين نابغي الأدب العربي – الأستاذ أحمد أمين والدكتور زكي مبارك – حيث وضعا بعض أهم موضوعات الأدب العربي على بساط البحث والنقاش. بعد أن تأثر النقد الأدبي العربي الحديث بالنقد الأوروبي وأخذ ينحو منحاه، تطور النقاش بين النقاد المحدثين في شتى القضايا الأدبية الحديثة، وتاريخ النقد العربي الحديث مليئ بالمعارك النقدية التي دارت بين النقاد في الأدب أو ما كان متعلقا بالنقد الأدبي بما فيها قضايا أدبية مثل قضية اللفظ والمعنى، وقضية الجمال الفني، وقضية التقليد والتجديد، وقضية الوحدة العضوية في القصيدة، وقضية الفكرة والعاطفة في الأدب، وقضية البحث في سر إعجاز القرآن وغيرها من المحاور الأدبية. ولا يختلف فيه الاثنان أن هذه المعارك الأدبية قد أدت دورا ملموسا في إثراء الأدب العربي الحديث من شتى النواحي، والأهم منها كشفها عما كان محجوبا عن المعجبين بالأدب العربي الحديث. وزمرة النقاد الذين أدلوا بدلائهم في هذه المعارك النقدية تتضمن أسماء العباقرة مثل طه حسين، وعباس محمود العقاد، ومصطفى صادق الرافعي، وتوفيق الحكيم، ومحمد مندور، وشوقي ضيف، ومحمود شاكر وغيرهم، وكل منهم كان يتبع منهجا خاصا مع العناية البالغة بالاستدلال من الشواهد الأدبية والأدلة الدامغة لإثبات مواقفه تجاه القضايا الأدبية المتباينة. فمن هذا المنطلق ستتمركز هذه المقالة البحثية في المعركة الأدبية التي دارت بين أحمد أمين وزكي مبارك، ولها أهمية كبرى لكونها طريفا في نوعها لأنها تناولت شتى المباحث الأدبية مع الكشف عن تباين رؤئ الناقدين فيها.

الكلمات الافتتاحية: النقد الأبي، المعركة، أحمد أمين، زكي مبارك، النقاد.

لمقدمة:

إنّ المعركة المهمّة الطويلة التي نشبت بين أحمد أمين والدكتور زكي مبارك لا يمكن نسيانها للتاريخ في أي زمن من الأزمان لأنّ هذه المعركة تناولت أهم قضايا الأدب العربي على وجه التفصيل. أبرزه أحمد أمين إلى حيز الوجود بكتابة مجموعة من المقالات النقديّة التي نشرها في مجلته "الثقافة" تحت عنوان "جناية الأدب

الجاهلي على الأدب العربي" في ٠٩ و ٢٣ مايو ١٩٣٩م، و٠٤ يونية ١٩٣٩م، و٠٤ و١٥ أغسطس ١٩٣٩م، وكتب مقالة أخرى تحت عنوان "أدب الروح وأدب المعدة" في ٠٦ يونية ١٩٣٩م.

وفي ١٢ يونية ١٩٣٩م فاجأ الدكتور زكي مبارك قرّاء مجلة "الرسالة" بتقديم سلسلة من المقالات العنيفة التي كتبها في الردّ على أحمد أمين تحت عنوان "جناية أحمد أمين على الأدب العربي"، وقد اتّصلت هذه المقالات حتى ١٣ نوفمبر ١٩٣٩م أي أنها استمرت ستة شهور وبلغ عددها إلى ٢٢ مقالة.[1] يقول الدكتور زكي المحاسني في هذه المقالات النقدية: "ولا أزال أذكر مقالات عنيفة متسلسلة كتبها الدكتور زكي مبارك في مجلة (الرسالة) وعنوانها 'جناية أحمد أمين على الأدب العربي'".[2]

والجدير بالذكر أن أحمد أمين لم يشترك في هذه المعركة على نحو سافر مما يمكن إطلاق على هذا السجال اسم المعركة، كما يتضح من عبارة الدكتور زكي المحاسني حيث يقول: "لكن أحمد أمين لم يقتحم غمار المعركة المحمومة، فكان يكفي بالمقال والمقالين، يطفئ بهما الدوافع النفسية التي كانت تجول في داخله أو يكشف حقيقة كانت خافية... ولم يكن أحمد أمين متثبتا برأيه إلا إذا كان على يقين بأنه على صواب ولديه الدليل والبرهان".[3]

ولا يفوتنا أنّ بعض الباحثين بما فيهم عبد المتعال الصعيدي وعبد الوهاب عزام اشتركوا في هذه المعركة بإبداء آرائهم النقدية المختلفة. تم تناول العديد من القضايا الهامة، كما ذكرت فيما سبق، بخصوص الأدب العربي في هذه المعركة، وسنتناول أهمها بالدراسة تحت عناوين فرعية بمنتهى الإيجاز.

ا-في أدب الروح وأدب المعدة:

قسم أحمد أمين الأدب العربي إلى عدة أقسام على أسس مختلفة ومنها أدب الروح وأدب المعدة. يعرّف أدب الروح بأنه "ينبعث عن النفس، كما ينبعث صوت البلبل عن نفسه، ويدلّ على صاحبه كدلالة ضحك الطفل البريء، وبكائه على ما في نفسه من سرور أو حزن، فلا غش ولا رياء..."[4] وأما أدب المعدة فيقول في تعريفه أنه "يغنّى للمضيف لا لنفسه، يتحسس المعاني تسرّ صاحب الموائد حتى يخرج له شهي الطعام ومختلف الألوان، يبيع ذوقه لذوقه وفنه لفنه".[5]

[1] أنور الجندي، المعارك الأدبية، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1983م)، ص241.

[2] الدكتور زكي المحاسني، محاضرات عن أحمد أمين، (القاهرة: جامعة الدول العربية، 1963م)، ص174.

[3] المصدر السابق، ص175.

[4] أحمد أمين، فيض الخاطر، ج2،(القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة)، ص82.

[5] المصدر السابق، ص83.

يعني بعبارة أخرى إن أدب الروح يعبر عما يختلج في نفس الشاعر أو الأديب ويكون الشاعر صادقا في تعبيره، ولا ينوي منه سوى التعبير عن الإحساس المختلج في صميم وجدانه. أما أدب المعدة فيكون فحواه الحصول على المنافع الخسيسة والأغراض المادية، ويلجأ الشاعر فيه إلى الكذب بنية قبول حسن عند الخلفاء والأمراء. ثم يحكم أحمد أمين على شتّى الفنون الأدبية حكما نقديا ويقسمها وفق أدب الروح وأدب المعدة، ويرى أن الكثير من القصائد في الأدب العربي، ومنها الهجاء والمدح ، والمقامات ومعظم الأدب العباسي يندرج في أدب المعدة لأن غايتها لم تكن سوى الارتزاق وابتزاز المال، ولكنه يستثني القرآن والحماسة لأبي تمام من أدب المعدة، ويشملهما في أدب الروح. فهذا التقسيم تمخض عن معركة عنيفة شهدتها تاريخ الأدب العربي بينه وبين زكي مبارك.

يفنّد الدكتور زكي مبارك تقسيم أحمد أمين هذا، ويخالفه لاعتبار المدح والهجاء كنوعين من أدب المعدة، ويرى أن المدح والهجاء هما السجل الصحيح للأخلاق العربية، ولو ضاعت منهما لضاعت الكثير من التراث الأدبي، فيلقي ضوءا على أهميتهما ويقول: "فمن المديح نعرف كيف كان العرب يتمثلون المناقب، ومن الهجاء نعرف كيف كانوا يتصورون المثالب، ومن المحاسن والعيوب يعرف الباحث صور المجتمع في الحياة العربية والإسلامية".[1]

ويرى أن لهما دورا محوريّا في تقويم الأخلاق، وفي هذا السياق يذكر شاعر الرسول حسان بن ثابت، والفرزدق ومسلم بن وليد والبحترى وأبا تمام، ويرى فيهم أنّ كلهم كانوا من شعراء أدب الروح لأنهم لم ينتجوا أدبهم بغرض الحصول على المنافع التافهة بل أدّوا خدمات اجتماعية جليلة عن طريق أدبهم تجاه مجتمعهم، ويقول فيهم: " ومن حقهم أن يعيشوا بفضل تلك الخدمات، لأنهم لم يخلقوا بلا معدة كما خلق الأستاذ أحمد أمين الذي يخدم الأمة المصرية بالمجان، لأنه لا يتناول من الجامعة في كل شهر غير مبلغ ضئيل لا يتجاوز الستين دينارا...".[2]

فهنا يتجلّى غضب زكي مبارك وحنقه على أحمد أمين من كلماته النابية التي ينقد بها على أحمد أمين، ويتهمه، ولو بصورة غير مباشرة، بأنه يقوم نفسه في صفوف أدباء المعدة.

ب- في المَقَامات:

يعدّ أحمد أمين المقامات من أدب المعدة ويقول إن محورها الرئيسي ليس حبا ولا غراما كما يفعل الروائيون اليوم بل هو على النقيض من ذلك، ويرى أنّ بديع الزمان الهمذاني هو من

[1] مجلة الرسالة/ العدد 312/ جناية أحمد أمين على الأدب العربي، بتاريخ 26-06-1939.

[2] المصدر السابق.

ابتدع هذا الفن الجديد في العصر العباسي ولكنه لم يجعل محورها شيئا يتصل بأدب الروح، بل كانت جميع أهدافها تتمركز في ابتزاز المال عن طريق المكر والخدعة. وكذلك يرى في الحريري أنه كان مثل الهمذاني "دناءة نفس وخساسة حرفة، يشحذ ثمن كفن لميت يدعيه، ويتعامى فتقوده امرأته إلى المسجد ليبتز أموال المصلّين، يجمّل غلامه ليوقع الوالي في شركه فيسلبه ماله وهكذا، ويتخذ الفصاحة والبلاغة وسيلة للتكدي والسؤال".[1]

يردّ الدكتور زكي مبارك على أحمد أمين ردّا عنيفا وينقد عليه نقدا جارحا لما بدر منه بخصوص المقامات التي تعدّ فنا لا تعرف آداب اللغات الأخرى نظيرا لها. فيدعي مبارك أن أحمد أمين لم يقم بقراءة مقامات الهمذاني والحريري على النحو المطلوب، ولم يفهم غايتها على الوجه المنشود، ويقول إن المقامات لها غاية نبيلة وأغراض سامية تجاه إصلاح المجتمع وتنزيهه من العيوب والمثالب التي كانت رائجة آنذاك، فيوضح غاية المقامات قائلا: "الغرض من نظم المقامات عند بديع الزمان هو نقد الحياة الاجتماعية والأدبية في القرن الرابع. وفي سبيل هذا الغرض تعرّض بديع الزمان لوصف ما رآه في زمانه من مثالب وعيوب، واهتمّ بتدوين ما عاناه الناس في تلك الأيام من حيل الدجالين والمشعوذين..."[2]

ويقول الدكتور زكي مبارك إن أحمد أمين لم يتجرأ على تفوه بكلام بذيء بشأن المقامات لو كان مطلعا على الحقيقة أن فن المقامات التي ابتكره الهمذاني وأجاده الحريري قد انتقل إلى اللغة الفارسية واللغة العبرية واللغة السريانية. فهو من الفنون العربية التي تأثرت به اللغات العالمية الأخرى، ولا يمكن تأثير مثله بأدب المعدة، وبهذا يستدلّ زكي مبارك أن زعم أحمد أمين في المقامات أنها أدب المعدة باطل. علاوة على ذلك، يرى أن لها دور بارز في النهضة الأدبية الحديثة لأن مطبعة بولاق وجّهت اهتمامها إلى نشرها، وكذلك نشر حديث عيسى بن هشام الذي يعدّ أول كتاب في الأدب الحديث وهو يتميز بأسلوب المقامات.

يتّهم الدكتور زكي مبارك أحمد أمين بالسرقة حيث يرى أنه ليس هناك أي ابتكار في نقده على المقامات، بل سرق هذه الآراء من الأستاذ سلامة موسى. يقول مبارك إن سلامة موسى له عذر مقبول صادق يعنى أنه لم يتغلغل في أسرار الأدب العربي، وأما أحمد أمين فليس له أي عذر يدافع به عن سرقته الأدبيّة.[3]

[1] أحمد أمين ، فيض الخاطر، "أدب الروح وأدب المعدة"، ج2، (مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة)، ص84.

[2] مجلة الرسالة/ العدد 313/ جناية أحمد أمين على الأدب العربي لزكي مبارك، بتاريخ 03-07-1939م.

[3] المصدر السابق.

ج-قضية تأثير القرآن على الأدب العربي:

تناول أحمد أمين قضية تأثير القرآن على الشعر العربي أيضا بالدراسة النقدية، ويرى أن الشعر في صدر الإسلام لم يتأثر بالقرآن، بل اتخذ الشعر الجاهلي إماما له، لأنّ قالبه هو قالب الشعر الجاهلي، وموضوعاته مثل موضوعاته، ومادته من مادته، وتشبيهاته من جنس تشبيهاته، ولم يكن جديدا إلا في العرض دون الجوهر، وفي القشر دون المغزى، وفي الشكل دون الأساس، وكانت الجدة في رقة اللفظ بدل الخشونة، وفي تحوير المعنى بدل في خلقه وهكذا دواليك. وقد اعترض بعض الناس على الأستاذ أحمد أمين أن القرآن ليس شعرا، فلا بد من أن يكون الشعر إمام الشعر، ومصدر الشعر يجب أن يكون شعرا، وكذلك من الواجب أن يكون الشعر الجاهلي إماما للشعر الإسلامي، فيقول في رد تلك أقاويل الناس أنها ليست مبنية على الحقيقة بل هي تعليلهم للكسل والهرب من مشقة الابتكار.[1]

فكتب الدكتور زكي مبارك ردا على آراء أحمد أمين هذه بنبرة نابية، ويقول إنه من العيب بالنسبة لأحمد أمين أن يحاول فهم سرائر الشعراء والكتاب والخطباء، وهو بنفسه ليس بالشاعر أو الكاتب أو الخطيب. إنه يرى أن أحمد أمين مخطئ فيما قدّم من آرائه في تأثير القرآن على الشعر العربي لأنه لم يدرس الشعر الإسلامي دراسة جديّة، وماضيه العلمي يشهد بذلك، ويقول: "فأعماله كلها كانت محصورة في الدراسات الشرعية والأخلاقية، ولو شئت لذكرته بالأساس الذي أقيم عليه فجر الإسلام، فقد كان مفروضا أن يدرس أحمد أمين تطور التأليف، وأن يدرس طه حسين تطور الأدب، وأن يدرس عبد الحميد العبادي تحول السياسة. فالرجل في نفسه وفي أنفس زملائه مؤلف لا أديب".[2]

يفنّد الدكتور زكي مبارك دعوى أحمد أمين العريضة حيث يدعي أن القرآن لم يؤثر في الشعر الجاهلي، ويقول: "إنّ القرآن أثّر في الشعر الجاهلي تأثيرا شديدا، فقد وضعه في الغربال ولم يستبق منه غير ما كان بلغة قريش، وهي لغة القرآن".[3]

فيتضح من العبارة المذكورة للدكتور مبارك أن الأشعار الجاهلية التي ظهرت إلى حيز الوجود بعد تبلّج فجر الإسلام هي الأشعار التي تجاري القرآن من ناحية اللغة والنحو. وكذلك إن القرآن له فضل كبير في توحيد اللغة العربية، كما يتجلّى من قول مبارك فيما يقول: "لو لا القرآن لظل الشعر الجاهلي مختلف الصيغ

[1] أحمد أمين، فيض الخاطر، "<نهاية الأدب الجاهلي أو نقد الأدب العربي"، (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة)، ج2، ص245.

[2] مجلة الرسالة/ العدد 323/ بتاريخ 11-09-1939م.

[3] المصدر السابق.

والأوزان والأشكال، ولكان بابا إلى (بلبلة) الذوق العربي باختلاف اللهجات والأذواق".[1]

إنّ الدكتور زكي مبارك يأتي بأدلة تاريخية تدلّ على تأثير القرآن في الشعر الجاهلي بما فيه اهتمام الشعراء والأدباء بحفظ القرآن لترويض لسانهم وأذواقهم على الفصاحة العربية، ومنهم الأستاذ مكرم باشا الذي حفظ القرآن، ويعقوب صروف كان يملك خمس نسخ من القرآن كي يستطيع بها أنسا بالبلاغة القرآنية في كل وقت.

ويليق بالذكر أنّ الدكتور مبارك لم يكتف بإثبات تأثير القرآن على الشعر الجاهلي بل آتى بالأدلة القاطعة الدالّة على تأثير القرآن على الأدب العربي كله، ويرى أن الكثير من العلوم اللغوية والأدبية برزت إلى حيز الوجود بفضل القرآن الكريم. ويدعم آراءه بذهابه إلى الرأي أن القرآن قصّ على الناس أخبار الأنبياء والتي تلت بابتكار المسلمين من الأقاصيص بخصوص الأنبياء، وأعار المسلمون عنايتهم بشرح ما في القرآن من الأقاصيص والأخبار، فنظرا إلى هذه الحقائق، يستحيل لأي شخص أن يدّعي أن القرآن لم يؤثر في الشعر الجاهلي. فيلخص مبارك آراءه فيه بقوله: "وخلاصة القول أن حفظ القرآن وفهمه كان من الوسائل التي يتذرع بها الشعراء والكتاب والخطباء لتفوق في البيان...".[2]

د-في الشعر العراقي والشامي والمصري:

تناول أحمد أمين شعر العراق وشعر الشام وشعر مصر بالبحث، ونقد على شعراء المناطق هذه لعدم اهتمامهم بالمناظر الطبيعية الموجودة في بيئتهم وبذكر أحداث مجتمعهم في شعرهم، ويقول إن الله فتح الدنيا على العرب وملكوا محاسنها على اختلاف أنواعها، ويسلّط ضوءا على ما تتحلّى بها البلاد العربية من المناظر الطبيعة الأخاذة، وما يتمتع بها العرب ويقول: "ففي أيديهم خير الأنهار وأجمل البحار وأنزه الرياض، وتحت بصرهم الأراضي الخصبة الجميلة، والجبال المكسوة بالأشجار والبساتين الغنية بالثمار، والحدائق التي تختال بالأزهار- في أيديهم مصر بنيلها وحقولها وبحرها وسمائها، والشام بجبالها وأشجارها ومياهها وسحرها، وبلاد العراق بسوادها وبساتينها ودجلتها وفراتها..."[3]

وبعد إلقاء ضوء على المناظر الطبيعية يقول: "...وأين الشعر العراقي الذي تجد فيه الشعراء يتغنون بمناظر العراق الطبيعية، ويصفون فيه أحداثهم الاجتماعية؟ وأين الشعر الشامي أو

[1] المصدر السابق.

[2] المصدر السابق.

[3] أحمد أمين، فيض الخاطر، "جناية الأدب الجاهلي أو نقد الأدب العري"،(القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة)، ج2، ص235-236.

المصري... الذي يشيد بذكر مناظر الطبيعة وأحوال الاجتماع للشام ومصر...؟ إنك تقرأ الشعر العربي، فلا تعرف إن كان هذا الشعر المصري أو عراقي أو شامي إلا من ترجمة حياة الشاعر، أما القالب كله فشيء واحد، والموضوع كله واحد، مديح أو رثاء أو هجاء أو نحو ذلك مما قاله الجاهليون".[1]

فالدكتور زكي مبارك يكرّر كلماته مرارا وتكرارا في كل مقالته النقدية التي كتبها في الرد على أحمد أمين ويقول إنه لم يكن مطلعا على ما نقد عليه بل كان نفسه جاهلا عن كلّها وإلا لم تسل من قلمه مثل هذه الآراء الجانية على الأدب العربي. ويرى لو كان أحمد أمين مطلعا على الشعر العراقي لأدرك أن العراقيين وصفوا كل شيء من مظاهر الطبيعة في العراق حتى الحيات والثعابين والعقارب والزنابير والبراغيث.

تجدر الإشارة هنا إلى أن الدكتور زكي مبارك يكشف عن حقيقة كبيرة ويرفع الستر الغليظة منها، وهي أن الدواوين التي تحفظ أشعار شعراء العراق بين طياتها لا تحوي جميع الأشعار، بل تقتصر على ما سمحت بحفظها الحكومة وما سمحت له السلطات السياسية. ويقول: ...إن شعراء العراق يمتازون بالجرأة في وصف أحداث المجتمع، وفي العراق مات مئات من الشعراء مسمومين أو مقتولين بسبب الجهر بكلمة الحق في وصف الأحداث الاجتماعية وما قامت في العراق دولة أو سقطت دولة بدون أن تظفر بقصيدة أو قصائد من أولئك الشعراء الذين كانت أشعارهم موازين في الحياة السياسية".[2]

ويقول أيضا: "وقد اهتديت إلى ذلك، وأن أدرس العصر الذي عاش فيه الشريف الرضي، فقد تبينت أن العراق في ذلك العصر عرف لونين من الحياة: حياة السر وحياة العلانية. وتيقنت أن الشريف ضاع من حياته نحو عشرين سنة بسبب الخوف من عواقب الجهر بكلمة الحق".[3]

وكذلك يرد الدكتور زكي مبارك على أحمد أمين لاعتراضه على شعراء الشام أنهم لم يصفوا بلادهم ولم يصوروا ما حدث فيها من أحداث اجتماعية. أما الشعر المصري فيقول فيه أن أحمد أمين له عذر مقبول في هذه الأحكام الجائرة على الأدب المصري لأنه لم يكن مطلعا على ما أنشدها الشعراء المصريون، ولو كان من المطلعين لعرف أن الشعراء المصريين وصفوا بلادهم وتغنوا بمحاسن بلادهم أجمل غناء.[4]

هـ- الأندلس وشعر الطبيعة:

من المعروف أن جميع الأدباء العرب والنقاد اتفقوا على أن شعراء الأندلس صبوا اهتمامهم على وصف المناظر الطبيعية في أشعارهم، ونجد

[1] المصدر السابق، ص226.

[2] مجلة الرسالة/ العدد 316/ بتاريخ 24-07-1939م.

[3] المصدر االسابق

[4] المصدر السابق.

قدرا وافرا من الشعر الأندلسي يشتمل على وصف الطبيعة، ومعظم شعراء الأندلس خلع عليهم اللقب "شاعر الطبيعة". ولكن الناقد المصري "أحمد أمين" يثير الدهشة والحيرة بين الأوساط الأدبية إذ يعلق على الأدب الأندلسي بما لا يليق للأستاذ الذي تلمّذ عليه الكثير من الطلاب المصريين في كلية الآداب، والذي ينقد على الأدب الأندلسي نقدا جارحا فيما يدعي أن الأدب الأندلسي كان عاجزا عن تذوق الطبيعة والإحساس بالوجود، ويقول إنه قد قرأ كثيرا من شعر الأندلس خاصة شعر ابن خفاجة الملقب بشاعر الطبيعة، ولكنه لم يجد فيه ما يذكر ويقدر، ويقول: "فكان شعوري نحو شعرهم أنهم أجادوا الصياغة ولم يوفقوا أن ينفخوا فيه الروح، شعرهم تمثال بديع لا حياة فيه إلا في القليل النادر، شعرهم من رأسهم لا من قلبهم، أكثر جهدهم موجّه إلى البحث عن تشبيه رائع واستعارة بديعية تعجب علماء البيان، لا نتيجة شعور يتدفق، يريد أن يحتضن الطبيعة لجمالها، ولا هو صرخة إعجاب خرجت من أعماق القلب في بساطة فطرية، ولا هو تمجيد للجمال وتقديس لمناظر يخر أمامه الشاعر ساجدا..."[1]

يفنّد الدكتور زكي مبارك آراء أحمد أمين هذه في الشعر الأندلسي ويقول إنه المعروف عند جميع الأدباء أن الأندلسيين تفوّقوا في وصف الطبيعة، وليس من الممكن أن يتحمل مثل هذه الكلمات النابية التي بدرت من أحمد أمين بخصوص الأدب الأندلسي. إن الدكتور مبارك يسلّط ضوءا على الأسباب التي ساقت أحمد أمين إلى التعبير عن نفس التعليقات اللّاذعة، ويقول: "أغلب الظن أن أحمد أمين سمع أنه لم يأت بجديد منذ اتصل بكلية الآداب، والجديد عنده هو الخروج على ما اتفق عليه جمهور أهل الأدب في ميدان الحقائق الأدبية، فمضى يتكلف ويتعسف ليأتي بجديد يجعله في الطبيعة بين أساتذة كلية الآداب، فكان ذلك التجديد هو التجني على ماضي الأدب العربي، حين زعم أنه في أكثر أحواله أدب معدة لا أدب روح،... وأنه لم يصف الطبيعة ولم يتحدث عن المجتمع".[2]

يرى الدكتور مبارك أن فقدان القدر الوافر من الأدب الأندلسي بسبب تعرضه للأوضاع المتوترة وما لاقاها من الكوارث والنائبات على تطاول العصور وكر الدهور لا يعني أن أهل الأندلس كانوا عاجزين عن تذوق الطبيعة والإحساس بما تعرضوا له من الأحداث الاجتماعية، كما يتضح في العبارة حيث يقول: ويجب أن يكون مفهوما... أن الأدب الأندلسي

[1] أحمد أمين، فيض الخاطر، "جناية الأدب الجاهلي أو نقد الأدب العربي"، (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة)، ج2، ص236.

[2] مجلة الرسالة/ العدد 319/ بتاريخ 14-08-1939م.

تعرض للضياع منذ الأجيال، فلو قلنا أن ذلك الأدب ضاع منه أكثر من تسعة أعشاره لما بعدنا عن الصواب، فقد عانى ذلك الأدب فتنة حمقاء هي ثورة الأسبان على مخلفات العرب في الأندلس وإصرارهم على تبديد ما ترك العرب والمسلمون من روائع الآداب والفنون".[1]

وبكلام الدكتور مبارك بقيت آثار الأدب الأندلسي تشهد وتدل على أن العرب في الأندلس أحسوا الطبيعة والوجود إحساسا قليل النظائر والأمثال على الرغم من ضياع الحظ الوافر منه بسبب الأوضاع غير المناسبة، ويستدل من كلام المعتمد بن عباد فيما يتجلّى الإحساس بالطبيعة بصورة جليّة، ومن كلامه:

ولَيلٍ بِسدِّ النهر أُنسا قطعتُه
بذات سِوار مثل منعطف النهر
نضت بُردَها عن غصن بَانٍ مُنعّمٍ
فَياحُسن ما انشقّ الكمام عن الزهر[2]

ويقول: "وما رأي أحمد أمين في قول محمد بن سفير":

ووَاعدتُها والشمس تجنح لِلنّوى
بِزَورَتِها شمسًا وبدر الدُّجى يسري
فجاءت كما يمشي سنا الصبحِ في الدجى
وطوراً كما مرّ النسيم على النهر
فعَطَّرت أن (الآفاق) حولي فأشعَرَت
بمقدمها والعَرف يُشعِر بِالزّهر
فَتَابَعت بالتقبِيل آثارَ سَعيها
كما يتقصّى قارئٌ أحرُف السَطر
فبِتّ بها والليل قد نام والهوَى
تنَبّه بين الغصن والحِقف والبَدر
أعانقها طورا وألثَم تارة
إلى أن دعتنا للنّوى رايةُ الفجر[3]

ويقول مبارك أن أحمد أمين أغمض طرفه عن كل هذه الأبيات التي تعكس الطبيعة بأشجارها وأزهارها وأنهارها وأقمارها تداعب خيال الشاعر وهو ينظم القصيدة.

يرى الدكتور مبارك أن أحمد أمين قد فهم مفهوم الطبيعة بمعنى ضيق، ومفهوم الطبيعة لديه مقصورة على الشجرة والزهرة، ويقول: "هيهات، إنما الطبيعة كتاب الوجود بما فيه من حجر ومدر، وشجر ونبات، وماء وجماد".[4]

علاوة على ذلك يخص الدكتور زكي مبارك مقالة كاملة لإلقاء الضوء الكاشف على شاعر الطبيعة "ابن الخفاجة" فيمن يرى أحمد أمين أن شعره خاليا من الروح والجوهر ويعلّق عليه أنه لم يتذوق الطبيعة ولو اشتهر بوصف الطبيعة.

ويقول الدكتور مبارك في ابن الخفاجة أنه كان جنانا، لأنّه قضى جلّ أوقاته في وصف الرياض

[1] المصدر السابق.
[2] المصدر السابق.
[3] المصدر السابق.
[4] المصدر السابق.

والبساتين، وكانت الجنة لديه الأندلس التي فضلها على جنة الخلد، واتهمه بعض معاصريه بالمروق إذ أنشد الأبيات التالية:

يا أهل الأندلس لله درّ كم
ماء وظل وأشجار وأنهار
ما جنةُ الخُلد إلاّ في دياركم
ولو تخيَّرتُ هذي (هذا) كنت أختار
لا تختشوا بعدها (بعد ذا) أن تدخُلوا سقراً
فليس تُدخلُ بعد الجنَّةِ النارُ[1]

وبكلام زكي مبارك يدعي أحمد أمين بأن شاعر الأندلس ابن خفاجة لم يتذوق الطبيعة، ولكن لو كان مطلعا على أبياته التالية ما بدر منه مثل هذه التعليقات اللاذعة، فكلامه شاهد على تذوقه الطبيعة كما يتضح في الأبيات التالية:

رُبَّما استَضحَكَ الحَبابَ جَيبٌ
نَفضَت ثوبَها عَليهِ المُدامُ
كُلَّما مرَّ قاصراً من خُطَاه
يتَهادَى كما يمُرّ الغَمَامُ
سَلَّم الغُصنُ والكثيبُ علينا
فعلى الغُصنِ والكثيبِ السلامُ[2]

ومن أهم مزايا ابن خفاجة أنه يتمثل الطبيعة في حركة وحياة فيراها ترضى وتغضب، وتضحك وتعبس، كما يقول:

عَاطِ أخلاَّءَكَ المُداما
وَاستَسق لِلأَيكَه الغَمَاما
وراقصِ الغصنَ وهو رَطبٌ
يقطُرُ أو طَارِح الحماما
وقد تهادَى بها نسيمٌ
حيَّت سُلَيمي بها سلاما
فَتِلك أَفنانُها نشَاوَى
تَشربُ أكوابَها قياما[3]

وكذلك يأتي الدكتور مبارك بالكثير من الأمثلة من كلام ابن خفاجة التي تشهد بأن ابن خفاجة كان شاعرا مثاليا في الأندلس، وتذوق الطبيعة للغاية.

إنّ الشعراء - الذين كانوا يتجولون في الأمصار المختلفة للعالم، والذين اتهمهم أحمد أمين بأن جولتهم كانت تستهدف إلى الارتزاق والمال - أصبحوا موضوع النقاش في هذه المعركة، ويصرّح فيهم الدكتور مبارك أن جولاتهم كانت لها غايات أسمى من طلب الرزق، وهي استئناسهم بالبلاد والبحار والأنهار والجبال، ويمكن القول إن دواوينهم في بعض نواحيها تشبه الخرائط الجغرافية .ويستدل بالأمثلة العديدة من التاريخ مدّعيا أن أحمد أمين لم يعر اهتمامه إلى نفس النماذج الأدبية أثناء نقده على الأدب الأندلسي وشعر الطبيعة، فيذكر قصيدة المتنبي في شعب بوان، وقصيدة البحترى في إيوان

[1] مجلة الرسالة/ العدد 320/ بتاريخ 21-08-1939م.
[2] المصدر السابق.
[3] المصدر السابق.

كسرى، وقصائد الأندلسيين في أهرام مصر، وقصائد الشريف الرَضِي في أطلال الحيرة، وقصيدة الأنطاكي في ليالي الجزيرة والنيل وما إليها للكشف عن عناية شعراء العهد العباسي ومنهم شعراء الأندلس بصفة خاصة بالطبيعة. ويتجلّى اعتقاده الراسخ بآرائه هذه من قوله حيث يرى: "إنّ الذي يحكم بأنّ شعراء العرب لم يحسّوا الطبيعة ولم يتغنوا بأفانين الوجود لا يكون إلاّ رجلا حرمه الله من نعمة الفهم العميق لأسرار الشعر والبيان".[1]

الخاتمة:

فقصارى القول إنّ هذه المعركة حقّا ذات أهمية كبيرة في تاريخ الأدب العربي لأن بعض أهم القضايا قد عولجت فيها بالدراسة النقدية، وكشفت عن الحقائق المستورة في الأدب العربي. من الجدير بالذكر أن أهم الفروق التي أدركناه بين آراء أحمد أمين والدكتور زكي مبارك هي أن أحمد أمين نقد على الأدب العربي ولكنه لم يأت بأمثلة وافرة تأييدا لموقفه في آرائه النقدية، واكتفى بسرد آرائه دون استدلال بأدلة دامغة. أما الدكتور زكي مبارك فيبدو نقده أقرب إلى جانب الصواب لأنه آتى بأدلّة قاطعة لإثبات ما قدم من الآراء أثناء ردّه على أحمد أمين.

ولكن الدكتور زكي مبارك ردّ على أحمد أمين بنبرة حادة تدلّ على غضبه وحنقه على الناقد المصري، بل لجأ، في بعض الأحيان، إلى استعمال اللهجة العدائية النابية التي لا يليق بالناقد الكبير مثل الدكتور مبارك. وإنه لا يعتبر أحمد أمين من الأدباء ويرى أنه باحث كبير بلا نزاع ولكنه لا يستحق أن يسمّى أديبا أو كاتبا.[2]ويقول: "أحمد أمين ليس بكاتب ولا أديب وإن سوّد الملايين من الصفحات."[3] وكذلك يرى فيه أنه رجل محروم من الذوق الأدبي.

ومما لا مراء فيه أن الدكتور مبارك كرّر في إثبات صداقته وإخلاصه في نقده على الأستاذ أحمد أمين، ولكننا نلاحظ في ثنايا المقالات التي تبلغ عددها 22 مقالة أنه يتفوه أحيانا بكلمات تعكس حنقه وغضبه على أحمد أمين كما يتضح من العبارة حيث يقول: "وللأستاذ أحمد أمين أن يسلك من مذاهب النجاة ما يشاء، أما أنا فسأطوقه بطوق من حديد فلا يعرف سبيل الخلاص وإن بالغ في التشكي والتوجع، واستعدى علينا بفلانة وفلان".[4]وكذلك يكشف عن دفائنه المطوية أثناء نقده على تقسيم أحمد أمين الأدب إلى أدب المعدة وأدب الروح حيث يقول: "لوكانت معدتي قوية لأكلت لحم أحمد أمين وأرحت الدنيا من أفكاره الجائرة في التاريخ

[1] مجلة الرسالة/ العدد 317/ بتاريخ 31-07-1939م.

[2] مجلة الرسالة/ العدد 310/ بتاريخ 12-06-1939م

[3] مجلة الرسالة/ العدد 311/ بتاريخ 19-06-1939م

[4] مجلة الرسالة/ العدد 323/ بتاريخ 11-09-1939م

والأدب".[1] فالهجة مثلها لا يليق بالناقد الكبير لأنها تنافي مبادئ النقد الأدبي وأصوله.

المصادروالمراجع:

- أحمد أمين، فيض الخاطر، ج2، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م.
- أنور الجندي، المعارك الأدبية، مكتبة الأنجلو المصرية، 1983م.
- الدكتور زكي المحاسني، محاضرات على أحمد أمين، جامعة الدول العربية، القاهرة، 1963م.
- مجلة الرسالة/ العدد 312/ جناية أحمد أمين على الأدب العربي/ يونيو 1939م https://ar.wikisource.org/wiki/%D9%85%D8%AC%D9%84%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%B3%D8%A7%D9%84%D8%A9
- مجلة الرسالة/ العدد 313/ يوليو 1939م.
- مجلة الرسالة/ العدد 316/ يوليو 1939م.
- مجلة الرسالة/ العدد 319/ أغسطس 1939م
- مجلة الرسالة/ العدد 320/ أغسطس 1939م.
- مجلة الرسالة/ العدد 323/ سبتمبر1939م.

[1] جهاد فاضل، جناية أحمد أمين على الأدب العربي (2-2)، جريدة الراية.2-2/2/1/2009/miscellaneous/com.raya.www:/http